المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الثاني والاربعين

١ ابريل (نيسان) سنة ١٩١٣ — الموافق ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٣٣١

دولة الروس

او ثلثمئة سنة على بيت رومانوف

احتفلت روسيا في الشهر الماضي بمرور ثلثمئة سنة منذ تبوّأ عرشها اول ملك من بيت رومانوف . وهي جديرة بهذا الاحتفال لان كل ما تفتخر بهِ من مقومات العمران وتتابجهِ نشأ فيها او دخل اليها في زمن هذه الدولة فوق ما بلغتهُ من سمة الملك الذي تصدّر عنهُ الرومان في اوج عظمتهم

كان سكان مملكة الروس حينما تولاها ميخائيل رومانوف سنة ١٦١٣ وهو الاول من بيت رومانوف نحو عشرة ملايين من النفوس فزاد عددهم بالنمو الطبيعي والفتوح حتى بلغ الآن نحو مئة وسبعين مليوناً وقد تدرّج في ذلك تدرّجاً ولكن بخطوات الجبابرة سواء كان بالنمو الطبيعي او بالفتح كما ترى في هذا الجدول

سنة ١٦١٣	عدد السكان ١٠ ملايين	سنة ١٨١٥	عدد السكان ٤٥ مليوناً
« ١٧٢٢	« « ١٤ مليوناً	« ١٨٢٥	« « ٦٠ «
« ١٧٤٢	« « ١٦ «	« ١٨٥٩	« « ٧٤ «
« ١٧٦٢	« « ١٩ «	« ١٨٨٢	« « ١٠٣ ملايين
« ١٧٨٢	« « ٢٨ «	« ١٨٩١	« « ١١٥ مليوناً
« ١٧٩٦	« « ٣٦ «	« ١٨٩٧	« « ١٣٠ «
« ١٨٠٦	« « ٤١ «	« ١٩١٠	« « ١٦٤ «

ولا يبعد ان يكون عددهم الآن اكثر من ١٧٠ مليوناً لان الزيادة السنوية اكثر من واحد في المئة

وكانت مساحة مملكة الروس حينما تولاها الملك ميخائيل الاول نحو مليون وربع من الاميال المربعة واكثرها قفار شاسعة لا ساكن فيها او فيها قبائل رحّل فاصبحت مساحتها الآن ثمانية ملايين و٦٤٧ الفاً من الاميال المربعة ولا تزال فيها قفار شاسعة قليلة السكان ولا سيما في سيبيريا ولكن مساحة الارض زادت اقل من مئة اضعاف واما عدد السكان فصار سبعة عشر ضعفاً

ولم نقف على دخل الحكومة الروسية في عهد الملك ميخائيل لما كان عدد سكانها عشرة ملايين ولكن لما كان عدد السكان ثلاثين مليوناً سنة ١٧٩٠ كان دخل الحكومة ٤٥ مليون روبل او نحو سبعة ملايين من الجنيهات ولذلك نرجح انهُ لم يزد على مليونين او ثلاثة من الجنيهات سنة ١٦١٣ وهو الآن اكثر من ٢٧٠ مليوناً من الجنيهات اي انهُ زاد اكثر من مئة ضعف وهو لا يزيد كذلك الاّ اذا زادت ثروة البلاد زيادة تناسبهُ

وقد رأينا ان نلخص تاريخ بلاد الروس في الصفحات التالية ونقتصر على ما فيهِ عبرة للباحث في تاريخ الامم فنقول

كانت بلاد الروس في سالف عهدها امارات صغيرة مستقلة ولا يعرف الآن من تاريخها حينئذٍ شيء الاّ ما كتبهُ عنها راهب اسمهُ نسطور فقال ان القبائل التي كانت تسكن الغابات حول بحيرة المن وبحيرة لادوغا في الشمال الغربي من روسيا كانت تدفع الجزية لامراء جاءوها من بلاد روس (والمظنون ان بلاد روس هذه هي اسوج) · وسنة ٨٥٩ طردت تلك القبائل اولئك الامراء ولكن قام النزاع بينها فعادت واستدعتهم اليها بعد ثلاث سنوات لكي يتولوا امرها · فجاء منهم ثلاثة اخوة وهم رورك وسنيوس وتروفر ونشأت منهم دولة في البلاد يقال ان كثيرين من امراء الروس الآن متسلسلون منها · واقام رورك قرب بحيرة المن وبنى هناك عاصمة ومنها كان يأتي حراس ملوك القسطنطينية · وهو الملك الاول من ملوك الروس

ولم يكتفِ اولاد هؤلاء الامراء بالاستيلاء على القبائل التي استدعتهم بل دوخوا ما حولهم من البلاد قبل ان يمرّ قرنان عليهم وجعلوا مقرهم مدينة كيف لانها كانت في سكة القوافل الذاهبة الى بلاد الروم والآتية منها · ثم غزوا نحوم الروم وتهدّدوا القسطنطينية واخذوا اخت ملك الروم زوجة لواحد منهم فتنصّر هو وشعبهُ · وصاهروا ملوك بولندا والمجر وتزوج وفرنسا · لكن احوال البلاد الداخلية لم تكن منتظمة لان بيت رورك حسب البلاد كلها ملكاً لهُ فصار كل واحد من اعضائهِ يحسب ان لهُ قسماً منها فتجزأت الى امارات لا تجمعها جامعة الاّ كون الامراء من بيت واحد وانهم تحت سلطة صاحب كيف ام مدائن الروس ·

ولم تكن الخلافة في اولاد صاحب كيف بل كانت لاكبر الامراء سنًّا وكذا الحال في كل امارة من الامارات فينتقل الامراء من امارة الى اخرى فنشأت بينهم الخصومات والمنازعات . واخر امير من امراء كيف حفظ تقاليد السلف هو الامير يروسلاف الملقب بالعظيم الذي توفي سنة ١٠٥٤ وبعد وفاته كثرت المنازعات مدة ١٧٠ سنة وتمزقت المملكة كل ممزق واضطر كثيرون من السكان الى المهاجرة شمالاً فعظم شأن موسكو وتوفغورود وغيرهما من المدن الشمالية . وكثرت المنافسة بين هاتين المدينتين وكثيراً ما كان امراؤها يتقاضيان الى السيف ويشترك معهما سائر الامراء . وبينما هم كذلك في خصام مستمر جاءهم التتار المغول في اوائل القرن الثالث عشر ودوّخوا بلادهم واقاموا فيها وبنوا لهم عاصمة في الجهة الجنوبية منها سموها سراي وضرب خاناتهم الجزية على امراء الروس . وقوي شأن امراء موسكو في هذه المدة لانهم عرفوا كيف يسترضون خانات التتار ويجمعون لهم الجزية من سائر الامراء . ثم قام منهم امير اسمهُ ديمتري دنسكوي حارب التتار وتغلب عليهم في معركة مشهورة فلقب امير روسيا كلها . ولكن بلاد الروس لم تخضع كلها لامير موسكو الاَّ في عهد ايڤان الثالث وابنهِ باسيليوس وحفيدهِ ايڤان الرابع الملقب بالرهيب كما سيجيء

ثم انقسمت مملكة التتار الى خانات صغيرة وجعل كلٌّ منها يناوئ الآخر فتغلب الروس عليهم بالسياسة وبمعاونة بعضهم على البعض الآخر حتى خلصوا لهم . وجعل امراء موسكو يوسعون نفوذهم الى ان خضعت لهم امارات الروس كلها . ولقّب هؤلاء الامراء انفسهم قياصرة وكانوا قد تنصروا وجاءهم الكهنة من القسطنطينية وعلموهم ادارة شؤون الملك فتشبهوا بقياصرة الروم في حسبانهم انفسهم مختارين من الله للسلطة على شعبهِ . حتى اذا انقرضت دولة الروم من القسطنطينية حسبوا ان حماية الكنيسة الارثوذكسية انتقلت اليهم . وعاشوا في قصورهم عيشة القياصرة والاحبار حتى طلب باسيليوس بن ايڤان الثالث من رؤساء الدين ان يخضعوا لهُ خضوعاً تاماً وعزل المتروبوليت وكان اكبر اسقف في الكنيسة الروسية . وذهب سيجوند فون هربرستين سفيراً الى موسكو من قبل النمسا في ذلك العهد وقال انهُ ما من ملك في اوربا يطيعهُ شعبهُ اكثر مما يطيع الروس ملكهم وان في بلاط ذلك الملك من الابهة ما يقضي بالعجب وفي قصورهِ عدداً عديداً من الخدم والحشم والامراء ولهُ حرس من اولاد الاشراف بالحلل الفاخرة والاسلحة المفضضة

واقدر هؤلاء القياصرة ايڤان الرابع الملقب بالرهيب وقد توفي ابوهُ وهو حدث فكفلتهُ امهُ وادارت دفة المملكة بيد ضعيفة ثم سلمتها لبعض الاتباع . وبقالـــ ان مخايل

النجابة بدت عليهِ في حداثتهِ . ويروى عنهُ انهُ جمع هؤلاء الاتباع وهو حدثٌ ووبخهم على اختلاسهم اموال الخزينة وظلمهم للرعية ثم امر بواحد منهم وهو الامير شوسكي ان يربط ويطرح للكلاب فمزقت بدنهُ وصار عبرةً لغيرهِ . لكنهُ لم يستطع ان يصلح احكام البلاد لصغر سنهِ لانهُ كان لا يزال في الثالثة عشرة من العمر فلما صار لهُ سبع عشرة سنة طلب من رئيس الاساقفة ان يتوجهُ قيصراً على روسيا كلها لا اميراً على موسكو كما كان يتوج اسلافهُ وكان ذلك سنة ١٥٤٧

وحدث بعد بضعة اشهر ان شبت النار في موسكو وكادت تحرقها كلها وثار الغوغاء فقتل عمٌ القيصر في ثورتهم فحسب ان ذلك عقاب لهُ عاقبهُ بهِ الله لتغاضيهِ عن شؤون مملكتهِ فجعل ينظر في امورها كلها بمساعدة كاهن حسن الروية بعيد النظر اسمهُ سلفستر ورجل من الاتباع اسمهُ اداشف وبمشورتهما تمكن من تقييد سلطة الامراء والعدل في الرعية . وظل على ذلك اربع عشرة سنة . ثم انتقل فجأة من اللين الى الشدة لسبب مجهول فحكم البلاد بيد من حديد اربعاً وعشرين سنة حتى لُقب بالرهيب فقتل كثيرين من الخاصة والعامة عفواً ولما خاف غيرهم من الامراء شرهُ وهربوا منهُ والتجأوا الى صاحب لتوانيا اوجس شراً من البقية فاستخدم كثيرين من الاعوان الذين لا يخالفون لهُ امراً حتى بلغ عددهم ستة آلاف ويقال انهُ زحف بهم على امارة نوفغورود وقتل من اهلها ستين الفاً وبينهم كثير من النساء والاولاد ومن المحتمل ان الذين ذكروا ذلك بالغوا في عدد القتلى ولكن وُجد في دير مار كيرلس امام ٣٤٧٠ من القتلى الذين طلب من الكنيسة ان تصلي عن ارواحهم . وهناك صلاة يقال فيها اذكر يارب نفوس عبيدك النوفغورودين الذين عددهم ١٥٠٥ . ويقال في سجلات نوفغورود انهُ كان يقتل احياناً ١٥٠٠ نفس في اليوم الواحد

وجعل الروس في زمن ايڤان الرابع ينتشرون في البلاد المجاورة لبلادهم كما يفعل سكان الولايات المتحدة الآن واضطروا ان يحاربوا سكانها الاصليين او يدفعوا عن جاورها عنها فتألفت منهم عصابات مسلحة لمذهِ الغاية وهم القزاق الذين اشتهر اسمهم في تاريخ روسيا واكثر معيشتهم من مواشيهم وغزو البلاد التي حولهم وكثيراً ما كانوا يغزون المدن التي ينتظر منهم حمايتها كما يغزون القبائل التي يراد ان يحموها منهم . وخضع بعضهم لقيصر الروس وبعضهم لملك بولندا حسب البلاد التي اقاموا فيها الى ان صارت البلاد كلها لروسيا فصاروا من رعاياها

وكان امر خانات التتار قد ضعف على ما تقدم فاستولى ايڤان على خانتي قازان واسترخان وضرب الجزية على البشكير وحارب اسوج وبولندا لكي يوصل روسيا بالبحر ويوسع تجارتها

و يجلب من اوربا الاسلحة والصنّاع لان ملوك اسوج و بولندا كانوا يحظرون على التجار المجيء بالاسلحة الى بلاد الروس كما يحظر الاوربيون اليوم جلب الاسلحة الى قبائل افريقية . قال احد ملوك بولونيا للتجّارة الانكليز الذين كانوا يجلبون الاسلحة « ان الروس الذين هم خصومنا اليوم واعداء كل الامم الحرّة غداً يجب ان لا يعطوا مدافع وقنابل ولا صناعاً يصنعون لهم الاسلحة » . وهذا ما دعا ايڤان الرابع الى بذل جهده للوصول الى السواحل البحرية . وكان جدّهُ قد اتى بالصناع من البندقية فبنوا لهُ القصور والكنائس وسبكوا الاجراس والمدافع فحاول الافتداء به وجلب الصناع من المانيا فلم يفلح ولكن جاءهُ الفرج من حيث لم يكن ينتظر فان سفينة انكليزية كانت تحاول الوصول الى الصين بالسير في الدائرة الشمالية فوصلت الى مرفإ دڤينا في شمال روسيا وذهب ربانها الى موسكو فقابلهُ القيصر بالاكرام ومن ثم ارسلت انكلترا سفيراً الى روسيا واتصلت ربط التجارة بينهما . ولكن ميناء دڤينا في البحر الابيض الشمالي وهو يجلد اكثر شهور السنة فرأى القيصر ايڤان ان لا بدَّ لهُ من الاستيلاء على بلاد ليڤونيا فانتصرت لها بولندا واسوج فحاربهما ولم يفلح . ولما توفي خلفهُ ابنهُ ثيودور وكان ضعيف العزيمة على حسن سلوكهِ وكان لهُ صهر همام اسمهُ بوريس غودونوف فاستعان بهِ فوضع في روسيا نظام استعباد الفلاحين اي تقييدهم بالارض التي يعملون فيها فيباعون ويُشترون معها وجعلها بطريركية مستقلة عن بطريركية القسطنطينية

وتوفي ثيودور بلا عقب فخلفهُ صهرهُ بوريس غودونوف لكن الزمان لم يصفُ لهُ فحدث في البلاد جوع ووباء وثار عليهِ الخاصة والعامة وكان للقيصر ايڤان الرابع اخ اسمهُ ديمتري قُتل صغيراً فقام رجل وادعى انهُ هو ديمتري هذا ودخل روسيا بجيش من مستر زقة الالمان والبولنديين واستتبَّ لهُ الامر فيها بعد موت بوريس ولكن لم تمرَّ سنة حتى ثار عليهِ رجل من الاشراف اسمهُ باسيليوس شوسكي فقُتل في الكرملين ونودي بشوسكي قيصراً . ثم قام رجل آخر ادعى انهُ ديمتري ابن القيصر ايڤان واضطرَّ شوسكي الى التنازل لهُ بمساعدة ملك بولندا . ثم جعل ملك بولندا ابنهُ ملكاً على روسيا فرضي اهل موسكو بذلك على شرط ان يبقى مذهب البلاد الارثوذكسية ولكن ظهر ان ملك بولندا يريد الملك لنفسهِ لا لابنهِ وجاء اهالي اسوج برجل ثالث ادعوا انهُ ديمتري المقتول وحينئذٍ دبَّت النخوة الوطنية في نفوس الروس فنهضوا بقيادة رجل اسمهُ منين وامير اسمهُ پوشارسكي وطردوا كل المتطالين الى مملكة الروس وجمعوا الجمعية العمومية واختاروا ميخائيل رومانوف قيصراً لهم وبهِ ابتدأت دولة رومانوف الحالية كما سيجيء